كوكب الشرق

على مقعدين متجاورين بالمترو، جلستُ بصحبة أعز أصدقائي وأخي في الرضاعة المحاسب محمد عبد الغفار شعبان.

كان باديًا على وجهي وصوتي هم وحزن شديدان، لم يُخرجني من حالتي هذه سوى صوت كوكب الشرق ليطربنا من راديو صغير الحجم بيد مجند عشريني يجلس بالكرسي المقابل لنا.

كانت أم كلثوم تغني «أنا الشعب لا أعرف المستحيلا.. ولا أرتضى بالخلود بديلا .. بلادي مفتوحة كالسماء.. تضم الصديق وتمحو الدخيلا.. أنا الشعب شعب العلا والنضال.. أحب السلام أخوض القتال.. ومني الحقيقة مني الخيال.. وعندي الجمال.. وعندي جمال».

ومع صوتها الوطني- الملائكي، تذكرت هذه القامة الفنية العظيمة وموقفها من أزمتنا في أعقاب نكسة 5 يونيو 1967.

حينها أَقْسَمَتْ ألا يغفل لها جفن وشعب مصر يشعر بالهزيمة، فأحيت الحفلات على جبهة القتال؛ لرفع الروح المعنوية لخير أجناد الأرض، وتبرعت بكل مجوهراتها وريع حفلاتها داخل مصر وخارجها لصالح «المجهود الحربى».

ولم أنسَ مطلقا ما قاله عنها «أسطورة» فرنسا «شارل ديجول» حينما سمعها

تغنى في بلاده أغنية «فدائيون»: لقد لمست مع صوتها أحاسيسي وأحاسيس كل الفرنسيين جميعًا.

قلت لصديق عمري:

– لقد وقفت أم كلثوم كالمارد جنبًا إلى جنب بجوار الزعيم جمال عبد الناصر تتحدى الهزيمة المُرة وتُبشر بالانتصار القريب، تقدمت صفوف الرجال وجمعت التبرعات لصالح الشعب في أحلك ظروفه، أما فنانونا الذين تعدت أجورهم في مسلسلات رمضان الـ20 مليون جنيه، ورغم ذلك، لم نسمع عن تبرعاتهم ولو بـ«أتفه» المبالغ!!

سمعت حوارنا فتاة جامعية راقية جدًّا، اتضح فيما بعد أنها طالبة في أكاديمية الفنون، فقالت:

– ومن غير أم كلثوم يفعل ذلك؟ إنها امرأة بألف ألف رجل من أصحاب الكروش العفنة والضمائر الخربة والنفوس المريضة والقلوب الميتة والعقول المتآمرة على تراب هذا الوطن. الرئيس عبد الفتاح السيسي بدأ بنفسه، وتبرع بنصف ثروته ونصف راتبه لمصر، تبرع أيضًا بما تيسر له لصالح صندوق «تحيا مصر». أقسم بالله العظيم ثلاث مرات في اجتماعه برجال الأعمال أنه لو «يمتلك 100 مليار لتبرع بها لمصر».

وأضافت الفتاة:

– إن ما فعله الرئيس مجرد رسائل قوية لأثرياء مصر.

حينها قلت لصديقي إن «اجتماع الرئيس برجال الأعمال سيكشف عن مفاجآت سارة لصالح الوطن بلا شك».

مصمص صديقي شفتيه، وقال لي: «ابقى تعالى قابلني».

بعد مرور خمسة أيام على اجتماع الرئيس برجال الأعمال وعلى تشاؤم صديقي، لم أسمع عن التبرعات المأمولة من رجال الأعمال، حينها سألت نفسي:

– أين تبرعات سيدات الأعمال المصريات أيضًا في هذه الأزمة؟ ولماذا لم يدعهن الرئيس أو يعقد لهن مؤتمرًا خاصًّا بهن؟ هن يستطعن الوقوف خلف الرئيس ودعمه بكل ما يستطعن. أنا متأكد مما أقول. ألم يقفن معه في الانتخابات الرئاسية وقفات تاريخية؟.. إن الوقت يمر كالسيف، ووضع البلد الاقتصادي أصعب مما نتصور. يقيني أن نجاح الرئيس في مهامه والنهوض بمصرنا الحبيبة من كبوتها سيصبان في صالح رجال وسيدات الأعمال والفنانين كبقية شرائح المجتمع.

وبعد مرور أسبوع بالتمام والكمال من هذا النقاش جمعني بصديقي لقاء آخر داخل المترو أيضا، وتحدثنا في ذات الموضوع، وألقينا باللوم – كل اللوم – على تقاعس رجال الأعمال في هذه الأزمة الطاحنة.

ولأن صديقي يعشق الزعيم جمال عبد الناصر، رغم أنه لا ينتمي لأي تيار ناصري؛ وجدته يذكرني بما فعله «ناصر» بشركات المقاولات الكبرى، مثل: حسن علام وعثمان أحمد عثمان والعبد ومختار و...، بعد أن أنصف الفلاحين من الأثرياء بقانون الإصلاح الزراعي.

سألت صديقي:

– هل تقصد أن السيسي يمكنه أن يكرر ذات السيناريو مع رجال أعمال من نوعية: حسين سالم وعائلة ساويرس و....؟؟

فقال لي صديقي:

– ولِمَ لا؟ السيسي أمامه فرصة تاريخية لو أنه استغلها بالشكل الصحيح لعودة أموال الشعب من ناهبي الأراضي و....

وأضاف صديقي:

– الملياردير بيل جيتس – رجل الأعمال الأمريكي ومؤسس شركة «مايكروسوفت» – تبرع بثلاثة وثلاثين مليار دولار، وهي نصف ثروته، وعلى نهجه تبرع 92 مليارديرًا من أثرياء أمريكا وكندا وروسيا لصالح الأعمال الخيرية في بلادهم، والعديد من بلدان العالم الفقيرة، على الرغم من استقرار بلادهم الاقتصادي.

فقلت له:

– برأيك ماذا سيفعل الرئيس أكثر مما فعل؟

فقال لي:

– بصراحة نحتاج إلى معجزة أو حل عبقري لاستمالة بقية رجال وسيدات الأعمال والفنانين وكل أثرياء مصر؛ لدعم اقتصادنا المنهار، قبل أن نمد يدنا لصندوق «النكد» الدولي، فالأمل الآن معقود على هذه الطبقة، كما أن فقراء مصر ينتظرون الخير على يد الرئيس، رغم زيادة معاناتهم من تبعات رفع أسعار المواد البترولية مؤخرًا.

قلت لصديقي:

– صدقت والله. لقد يئس الشعب من رجال الأعمال، ورأيي أن نتبرع ولوبمبالغ زهيدة من جيوبنا «الفاضية» أصلاً، أو بساعتي عمل – مثل اليابانيين – لصالح الوطن؛ حتى ننقذه من براثن المؤامرة الأمريكية – الإسرائيلية – الأوروبية –التركية – الإيرانية – القطرية – الإخوانية التي عصفت بالعراق وليبيا واليمن وتونس والسودان وسوريا. الآن – يا مصريين – تبرعوا، وليس بعد.. انتهى.